



جمعني لقاءً بأحد العاملين في الجهات الخيرية، فأقى الحديثُ على عمله في مهمة لا تتناسب مقامه الحالي بتوجيهه ممن يعلوه رتبةً في تلك الجهة، فقال لي بالحرف الواحد: أنا أعملُ حيثُ وُضِعْتُ، ولو كنت في المستودع!

هنا تذكرتُ قوله صلى الله عليه وسلم: "طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، وإن كان في الساقية كان في الساقية، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع"، والشاهد منه قوله: "إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، وإن كان في الساقية كان في الساقية".

ما أبهى هذا التعبير النبوى عن هذا النوع من الناس! البسيط في هيئته ولباسه.

ولعلك - أخي القارئ - تشاركتني جمال هذا التعبير الذي سطّره ابن الجوزي - رحمه الله - مبيناً صفة هذا الرجل المذكور، حيث قال: "خامل الذكر، لا يقصد السمو، فأين اتفق له كان فيه" [2].

كم نحن بحاجة إلى هذه النفوس الكبيرة في ميادين العمل لهذا الدين! تلك النفوس التي لا تعنيها التصنيفات الإدارية، ولا "الفالاشات" الإعلامية، ولا تردد أسماؤها في الحفلات الخطابية، أو منصات التتويج، ولا يعنيها أن تكون في صدر المجلس أو طرفه، بل الأهم عندها أن تخدم دين الله، ولو كانت المصلحة تقتضي أن يكون في مكانٍ لا تتسلط عليه كاميرات الإعلام، ولا تلهج به الألسنة.

يحدثنا التاريخ عن نماذج من رجال الساقية، منهم من عرفناه، والأكثر من لم نعرفهم، ولكنهم لا يخونون على الله تعالى، وفي الواقع من أمثالهم كثير.

تأمل معي في قصة ذلك الرجل الذي نوه النبي صلى الله عليه وسلم به بعد أن وَضَعَتُ الحربُ أوزارها في إحدى غزواته، فقال لأصحابه: «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: نعم، فلاناً، وفلاناً، ثم قال: «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: نعم، فلاناً، وفلاناً، ثم قال: «هل تفقدون من أحد؟» قالوا: لا، قال: «لكني أفقد جليبياً، فاطلبوه» فطلب في القتلى؛ فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم، ثم قتلواه، فأقى النبي صلى الله عليه وسلم فوْقَهُ عليه، فقال: «قتل سبعة، ثم قتلواه هذا مني وأنا منه، هذا مني وأنا منه» قال: فوضعه على ساعديه، ليس له إلا ساعداً النبي صلى الله عليه وسلم، فحفر له وُضْعٌ في قبره [3].

وعَقِيبٍ فتح نهاؤند (سنة 21هـ) [4] - والتي يسمّيها المسلمون فتح الفتوح - جاء البشير إلى الفاروق رضي الله عنه فقال:

أبشر يا أمير المؤمنين بفتح أعز الله به الإسلام وأهله، وأذل به الكفر وأهله؛ فحمد الله عز وجل، ثم قال: النعمان بعثك؟ قال: احتسب النعمان يا أمير المؤمنين، قال: فبكى عمر واسترجع قال: ومن يبحك؟ قال: فلان وفلان، حتى عد له ناساً كثيراً، ثم قال: وأخرين يا أمير المؤمنين لا يعرفهم، فقال عمر وهو يبكي: لا يضرهم ألا يعرفهم عمر، ولكن الله يعرفهم.([5])

ويقول عمر بن عبد الملك الكناني: صحب ابنُ محيريز (169هـ) رجلاً في الساقية - في أرض الروم - فلما أردنا أن نفارقه قال له ابن محيريز: أوصني، قال: «إن استطعت أن تعرف ولا تُعرف فافعل»([6])، وابن محيريز هذا، هو الذي سمعه بعضُهم يقول: "اللهم إني أسألك ذِكرًا خاملاً"([7]).

هذه نماذج لقصص اختالف سياقاتها، واتحدت مقاصدُها، تذكّر أولئك الذين يشعر أحدهم بالغبطة في العمل لدينه، ويتنفس السعادة وهو يتقرّب إلى الله بنفع إخوانه، ثم تأته نفسه في أحابين فيُشرّقُ ببعض حظوظها، حين تقتضي مصلحة العمل أن يقدم غيره عليه، أو أن يعمل في مكان لا تصله لواقط الصوت، ولا مذاييع الإعلام، ولا ألسنة المادحين.

إن من توفيق الله لعبد ورحمته به أن تكون همَّةُ نفسه، وقبلةُ قلبه - في عمله - أن يكون خالصاً لله، فلا يضيق صدره إذا لم يقدم، ولا تجزع نفسه إذا لم يشتهر، بل إذا اقتضى الأمر أن يعمل بصمت؛ عمل ونفسه تتدفق سروراً، وقد يرحل بصمت، وهو يتذكّر كلمة الفاروق: "لا يضرهم ألا يعرفهم عمر، ولكن الله يعرفهم"، وهو يطمع أن يَقْدُمَ على "طوبى" دار الطيبين المطيبين، الصادقين المخلصين...

اختارها وهنّبها الشيخ أسامي عبد الكريم العثمان

المصادر: